ذكرى مدام كورى

للكاتب العظيم اميل لودفيج

لا أظن سيدة ذات عبقرية كانت أقل هيمنة على أفئدة الرجال ، وفى الوقت نفسه لها من السلطان فى نفوسهم ما ليس لغانية من غواني باريس ، كمدام كورى

من وقت لآخر كان يفد إلى العالم الفرنسى الكبير پول پانلفيه بعض ذوى العبقريات الفرنسيين ويجلسون للسمر لديه فى بهوه المتواضع الذى تراه أشبه بالأماكن العامة منه بمجلس عظيم من عظماء فرنسا وكبير من وزرائها ، شأن المجوز الأرمل ،

على نفقة الدولة حتى سن الثامنة عشرة ، إذ يرون أن الولد الذى يبدأ حياته العملية فى سن الخامسة عشره لا يكون مزوداً بالمعرفة الكافية ، ولا بالاعداد الذى يمينه على اقتحام معركة الحياة بنجاح . وإن الدلائل كلها لتدل على احتمال تحقيق هذا الرأى إما عاجلاً وإما آجلاً

مما ذكر يتبين لنا التغيير الهام الذى طرأ على الأفكار بخصوص تعليم أبناء الفقراء فى بحر قرن تقريباً . ففى أوائل القرن الماضى كان يتساءل أعضاء البرلمان الانجليزى عما إذا كان تعليم الطبقات الفقيرة أمراً مرغوباً فيه؛ واليوم يقولون جميعاً فى إيمان إن التعليم الشامل الصحيح الذى يعم جميع الطبقات والذى يبرز النبوغ وينمى الاستعداد ويكون الخلق ويهذب العقل والقلب ويبين السمين من الغث هو حق ضرورى لكل طفل بغض النظر عن العوامل المادية . وعلى ذلك لا يكتفى الآن بتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الدين والحساب لأن هذا التعليم المحدود لم يعد يلائم حاجات الديمقراطية ولا المبادئ الانسانية التى لحسن الحظ قد أثمرت أينع الثمر فى ميدان التعليم .

أسماء فرهمى
درجة شرف فى التاريخ
ودرجة الأستاذية فى التربية فى انجلترا

٧ م ١١

بل شأن العالم الكبير الذى نفذت بصيرته إلى جمال الحقيقة والعلم فتسلى به عن زخرف الأرائك والطنافس

قصدت ذات يوم هذا البهو وقد صحبتنى إليه نفر من رجال العلم والسياسة . وكان رب الدار ملازماً لفراشه لانحراف ألمّ به ، فصافحه كل منا على حدة فى مرقده ، بينما كانت شقيقته تسبغ علينا التحية فى مجلس الضيافة . وكنت أشعر بأن عدم وجود پانلفيه بيننا قد جعل رابطة الجماعة مفقودة وممين سمرها ناضباً

وكذلك كان المجلس فاتراً كأن برودة الطقس قد شابته وأثرت عليه ، وبدلاً من إذكاء الحماسة فيه بفنجان من الشاي فقد أعدت مائدة طعام على الطراز القديم المتمق ثم دعينا إليها بعبارات ملؤها التبجيل والاحترام

وقد أعجب پانلفيه أن يقدمنى إلى ثلاثة من ضيوفه وأهل طبقته من رجالات العلم والسياسة ، وهم بيران ولانجڤان وأميل بوريل ، فأخذتنى الرهبة أمام هذه الرؤوس الكبيرة والجباه العريضة لرجال عظماء فى أبسط ما يكون من المظاهر ، تلك البساطة التى هى زينة العلماء الفرنسيين والتى كانت فى العصر الأخير شيمة العلماء الألمان . ثم أخذتنى الرهبة أمام هؤلاء الرجال الذين يتعذر على مثلى أن يقدر أعمالهم من تلقاء نفسه وبطريق مباشر . ولما كان من العسير علىّ فهم ما يتخلل أحاديثهم من المباحث العلمية جعلت أتفرس فى أدمغتهم الكبيرة وقوالبها المختلفة وما تحمل من علم وثقافة

وبينما نحن كذلك نقطع الوقت بين حديث متكلف تارة وسكوت عميق تارة أخرى ، إذ دخلت علينا سيدة عجوز لا تمت إلى الجمال بصلة . كانت ترتدى معطفاً أزرق وعلى عينيها نظارة كبيرة تزيد وجهها عبوساً ، وكان من الطبيعى قيام المجتمعين لتحيتها ، ولكن هيئة قيامهم ، وهيئة انتظارهم مصافحتها إياهم جعلتنى أعتقد أنها سيدة المجلس وأميرة المجتمعين ، تلك هى مدام كوري التى وقف الجميع لها وقفة الجنود أمام القائد ، كما وقفت منعزلاً أفكر فى هذه الجماعة المنسجمة من العلماء

ثم انتهت هذه الضيافة وانصرف كل إلى سبيله . وما أصبح اليوم التالى حتى كنت عند مدام كورى فى معملها الخاص ومعهد أبحاثها ، فوجدتها بين الأجهزة والمعدات المختلفة أعد أبالاً مما

كانت بالأمس حيث لا يرهقها التكلف الذى تضطر إليه بحضرة الرجال . ثم حادثتنى قليلاً وقضينا الوقت فى التفرج على ما فى المعمل من أجهزة وأدوات

كانت تلك السيدة البولونية ذات عيون سوداء قلقة ، لامعة كالنجوم ، وجميع ملامح وجهها مشربة بالحدة التى فى عينيها ، وعلى الرغم من خشونة مظاهرها ، تلك الخشونة التى هى سمة العلماء ، فقد ظهرت شيئاً فشيئاً بلين الجانب ووداعة النفس حتى لقد لاحظت ابتسامة خاطفة تشرق من شفتيها فى بعض الأحايين ...

وكانت صورة زوجها التى تعلو رأسها رمزاً ناطقاً لما كان بين هذين الزوجين من تعاون وتساعد فى العمل ، فقد كان يجمع إلى صفات الرجل الواسع الخيال ، ذى القريحة الوقادة ، ما تمتاز به المرأة من تطلع للخلق والابتداع ، بينما كانت هى على الضد من ذلك أقرب إلى صفات الرجولة منها إلى الأنوثة ، أو بعبارة أخرى كانت تمثل فيها العلوم الطبيعية بأسرها

وسواء هى فى حياة زوجها أم بعد موته فقد كانت تحكم عواطفها وتسيطر على إحساساتها بحيث لا يتم حديثها الحازم الدقيق عما يتلجج فى صدرها من عواطف وإحساسات

ولم يكن المجتمع مديناً لهذين الزوجين باختراعهما السحرى الذى أنقذ الملايين من الهلاك ، وبصغيرتهما الأنيقة فى حسن الذوق فحسب ، بل إنه مدين لهما أيضاً بفتاة أخرى هى أولى ثمار حياتهما الزوجية التى ترسمت خطاها فى العمل

وبينما كنت أتحدث مع والدتها فى المعمل إذ دخلت علينا بخطى الشباب وألقت نحوى نظرة استفسار وتقص . وعلى الرغم من أنها رشيقة القوام لدنة الغصن فقد كان يبدو عليها الامتعاض من أن أجنبيا يزور المعمل فيمكر عليهما صفاءه التام

وقد رأيتها على جانب عظيم من طهارة الملائكة الذين أجاد سكان فلورانس الأقدمون تصويرهم على شاكلة الشباب ، ووجدتها سالكة نهج أبويها لا من ناحية العلم فقط بل كذلك من جانب نوع الحياة الذى اختارته لنفسها حيث لم ترض زوجا لها إلا أحد الطلاب المنتسبين إلى « معهد أبيها بيير كورى »

هكذا رأيت تلك الشجرة المباركة والعائلة الجميلة ، سلالة بيير كورى ، ولمست بنفسى أساليبها فى المحافظة على أصلها والعناية بموهبتها وعنوان فخارها ، مما جعلنى أتساءل عما لو كان مبدأ المحافظة على السلالة مرعيا لدى الملوك رعايته عند عائلة بيير كورى !

ثم أخذت مدام كوري تذكر لى شيئا عن ابنتها قائلة :

— ان لها بنتا صغيرة !

وكأنها بذلك تريد أن تذكر لى أن فى هذا البيت شيئاً آخر غير الراديوم ، ثم قالت :

— وانها أيضا تشتغل جيدا ، ومما يؤسف له جد الأسف أن والدها لم يكن بين الأحياء فينعم خاطره بعمل ابنته !

وبينما نحن عند السلم نريد اجتيازه إلى معمل آخر رأيتها تلقي نظرة كلها عطف وحنان على ابنتها هذه التى سلخت ثلاثين ربيعا والتى أخذت ترشدنى إلى مادة لامعة فى ضوء حجرتها الضئيل ، ولكنى بدلا من الإصغاء جعلت أتأمل بريق شعرها المجعد . وبعد هنيهة عادت مدام كورى للحديث :

— عجب كلها الحياة ! مملكة بولونية فقيرة ، تجذب طبيبا فرنسيا ، فقيرا أيضا ، فيميل إليها قلبه ثم يفهمها وتفهمه !!!

ثم قالت بعد ذلك بصوت الفرح الظافر السعيد بحاضره :

— لم يكن لنا سوى حجرتين فى سطح البيت مما يعد لسكنى الخدم !

هكذا يتحدث كل ظافر فى معركة الحياة فيذكر أيام بؤسه وشقائه وقد تمكنت فكرة السعادة فى نفسه فظل ينشدها حتى اقتنصها وظفر بها . وهكذا بيير كورى وزوجه ، فبينما هما فى العزلة بغرفتيهما المتواضعتين إذ طلع نجم سعدهما فاهتديا إلى الراديوم وعرفا خواصه الخارقة العجيبة ، وسرعان ما تمت الشهرة وذاع الصيت فى أنحاء المعمورة ثم نما بالخير والسعادة ، بالسرور والابتهاج ، بالنصر والظفر

علمت الدولة بأمرهما فانتشلتهما من وكرهما بسطح البيت وشيدت لهما معهداً فخماً وأغدقت عليهما الأموال ليتيسر لهما الصبء ويسهل عليهما البحث

على أن هذه السعادة لم تغيرهما ولم تبدل شيئاً من حياة البحث التى اعتاداها ، بل واصلا العمل فى ظل معيشتهما الهادئة ، وربيا طفليهما على حب المثل الأعلى الذى رسماه لأنفسهما . وهكذا كان عماد حياتهما وقوام سعادتهما حجراً ذا سر خفى اهتديا إليه فأرسل عليهما ضياءه ، وأسبغ عليهما نعماءه ، إلى ما تلا ذلك